تجربة "مشروع المدية .. مشهد ثقافي جغرافي"
"التعليم في سياق مشروع بحثي تكاملي"

محمد الخواجا

جاء تنفيذ "مشروع المدية . . مشهد ثقافي جغرافي" ضمن مشروع "مشاريع صغيرة في المدارس" الذي أطلقه مركز القطان للبحث والتطوير التربوي مطلع كانون الثاني 2008، والذي تم تطبيقه في مدارس عدة، بحيث تناولت كل مدرسة تجربة تعليمية تختلف عن المدرسة الأخرى، وكانت المدية إحدى هذه المدارس.

وتمحورت التجربة في مدرسة المدية حول موضوع توثيق ذاكرة المكان والإنسان في القرية، **وانطلاقاً من فكرة تقوم على أساس بناء تجربة تعليمية من خلال استحضار ذاكرة المكان والإنسان، وتطبيق المنتوج من خلال أنشطة تعليمية مختلفة باختلاف قدرات الطلاب ورغباتهم في الرسم والكتابة والتعبير والدراما، وعلى أساس ربطها بعلم الرياضيات والتاريخ والجغرافيا واللغة العربية.**

لم يكن اختيار عنوان المشروع بالأمر السهل، فقد تناقشنا أنا وزميلي يوسف (مرشد تربوي في المدرسة) حول أفكار مختلفة. في البداية، فكرنا بعمل مشروع خاص بالمدرسة بسبب خصوصيتها، ثم فكرنا أن يكون المشروع حول الطالب والمدرسة بسبب غياب الاثنين، وهكذا استمر حوارنا أياماً حتى اتفقنا أن يكون مشروعنا عن القرية، تحت عنوان «المدية مشهد ثقافي جغرافي»، **والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا اخترنا الحديث عن القرية؟**

لقد أثار عنوان المشروع اهتمام الطلاب وزاد دافعيتهم للعمل والمشاركة بفعالية لإتمام هذا المشروع. **تقول إحدى طالبات الصف الثامن: «عندما ذهبت في رحلة إلى قلقيلية، سألتني إحدى المعلمات: من أين أنت؟ فقلت لها من قرية المدية. فقالت: لم أسمع بهذه القرية. وتضيف الطالبة: أحرجت وخجلت كثيراً لأن هذه المعلمة لم تسمع بقريتي، وعندما جاء المشروع عرفت أنها فرصتي لأن أكتب عن هذه القرية الصغيرة الجميلة حتى يعرفها كل الناس.**

وتضيف طالبة أخرى: أنا حاسة أن القرية غير موجودة وتعبانة، مرة عندما اطلعت على رام الله سألتني امرأة، من وين أنت؟ قلت لها: من المدية. قالت: من وين هذه المدية؟ قلت أحسن ومليح إنك ما بتعرفيها. وعندما جاء المشروع، تشجعت وكنت من أوائل الطالبات اللواتي عملن في المشروع لأنه يتحدث عن قريتنا.

المدية

قرية فلسطينية تقع على بعد 30كم غرب مدينة رام الله، احتلت العام 1967 ضمن الأراضي الفلسطينية التي استولى عليها الاحتلال الإسرائيلي. تعرضت القرية كباقي المناطق الفلسطينية إلى عمليات تدمير ومسح لمعالمها التاريخية. السكان هنا لا يعرفون سوى القهر والحرمان والتهميش والاستهداف، استهداف الإنسان والمكان، المياه العادمة، مكب النفايات، المستوطنات، جدار الفصل العنصري. تحرك كل شيء لكن القرية بقيت على حالها، بل ازدادت سوءاً، فأصبحت هي وأهلها جزءاً من الماضي، من هنا جاءت الكتابة حول هذا الموضوع.

هذه المادة التي نحاول تجميعها تقوم على أساس استحضار تاريخ قرية المدية، نجمع بين الصورة والحدث التاريخي والمكان، نجمع قصص الناس وحكاياتهم، والتفاصيل الصغيرة التي شكلت ملامح حياة هؤلاء الناس، ونتحدث عن المكان وما يمثله من مبانٍ ومواقع أثرية وتضاريس عبر توثيقها بالصورة والمادة المكتوبة، لنرسم من خلالها الامتداد التاريخي للقرية والناس الذين عاشوا طويلاً فيها.

تقول إحدى الطالبات: «عندما بدأت أجمع المعلومات من جدي أبو شفيق، تعلمت أشياء كثيرة، تعرّفت على أيام زمان، أيام رمضان والأعياد، تعرّفت على تقاليد الموت، طقوس الزواج القديمة، الطب الشعبي، وطرق مواجهة الحسد، والعين الشريرة، أشياء جميلة لا يمكن أن أنساها».

عندما بدأنا التفكير بالكتابة حول القرية، حاولنا أن تكون هذه الكتابة مميزة بأمرين:

1. القرويون هنا هم من سيتحدث عن ذاكرة هذا المكان، بلغتهم وطريقتهم الخاصة، من خلال تجربتهم الطويلة التي عاشوها على هذه الأرض عبر سنوات عمرهم الطويلة، سيذكر لنا الأجداد حكاياتهم مع مواسم الحصاد، وقطف الزيتون، أغاني الدلعونا والمواويل الشعبية، وتذكر لنا الجدات حكايات الأطفال والأكلات الشعبية في أيام الموالد والمواسم الدينية.
2. الطلاب اعتادوا على قراءة تاريخهم المكتوب من آخرين، وفي

هذه التجربة الموضوع يختلف، فهم من سيكتب تاريخ قريتهم، من خلال مجالسة أجدادهم وكبار السن في قريتهم.

مراحل التجربة

في البداية تحدثنا عن الجانب النظري للفكرة، أما على الصعيد العملي، وهنا أقصد بناء المشروع، فقد وضعنا أنا وزميلي يوسف المحاور الأساسية للمشروع، على أن يتم بناء مجموعات طلابية تعمل على تنفيذ هذه المحاور وإدارتها، وهي كما يلي:

- **الحكايات الشعبية**
- **مجموعة الطب الشعبي**
- **الألعاب الشعبية**
- **الفلكلور**
- **جغرافيا القرية**
- **المعتقدات الخرافية**
- **الأنشطة الاقتصادية**

ووضعنا بعض الأفكار التي يمكن أن تساعد المجموعات الطلابية، واتفقنا على أن نعمل مع طلاب الصف الثامن، وعقدنا اجتماعاً للطلبة، وتحدثنا معهم حول فكرة المشروع. اختلفت ردود فعل الطلاب في البداية حول فكرة المشروع بين متشجع وخائف ومتردد ويائس من عدم نجاح أي شيء يتعلق بالمدرسة والقرية.

تقول إحدى الطالبات: عندما شاركت في المشروع كنت مترددة لأنني كنت واثقة من عدم نجاحه، لأنه ولا عمره بينجح أي مشروع في المدية؛ سواء كان داخل المدرسة أو خارجها، ولكن إن شاء الله يخيب أملي وتنجح الفكرة.

ولكن مع مرور الوقت وتطور الفكرة، أخذت دائرة المشتركين بالاتساع، وبدأت معها أوهام الخوف والخجل والتردد عند الطلاب بالزوال. تحمس الطلبة للفكرة على اختلاف أعمارهم وقدراتهم الأكاديمية، وهذا تبين في الاجتماع الثاني، عندما جاءنا طلاب الصفين التاسع والسابع يطالبون بالاشتراك في المشروع، ووعدنا بإشراكهم مع طلاب الصف الثامن، وبخاصة أن لدينا احتياجاً لمجموعات طلابية تعمل في مجال:

- **النباتات الطبيعية**
- **عائلات القرية**
- **المياه «الآبار»**
- **العرس**
- **البناء**
- **مجموعة تصوير**

بعد الانتهاء من رسم الهيكل الخارجي لمشروع المدية مشهد ثقافي جغرافي، ووضع المحاور الأساسية للمشروع، وبناء المجموعات الطلابية، بدأت هذه المجموعات العمل على جمع المعلومات في الموضوعات التي تم اختيارها، فقد أخذت مجموعة الحكايات وكذلك الطب الشعبي والمعتقدات الخرافية بزيارة الأجداد وكبار السن في القرية، وسؤالهم عن قصص الماضي، بهدف التعرف على هذا المكان من جوانبه المختلفة، وقد عمل أفراد المجموعة بشكل متعاون، تقاسموا الأدوار فيما بينهم، فالبعض تولى البحث عن كبار السن في القرية، وعملوا قوائم بأسماء هؤلاء الناس، والبعض الآخر تولى مهمة الزيارات وإجراء المقابلات الشخصية، والآخرون تولوا مسؤولية الكتابة وتفريغ المعلومات.

تقول إحدى الطالبات، كنت أبحث عن المعلومات من جميع الناس، أذهب إلى جدي وجدتي، وفي الليل أجلس مع أمي وأبي، أسألهم عن أيام زمان، وبعد ذلك أفرغ المعلومات، وأبدأ البحث عن معلومات جديدة، كما بحثت في الكتب والإنترنت.

بالإضافة إلى هذه المجموعة، كانت هناك مجموعات تعمل في جوانب

مختلفة، فقد عملت إحداها على جمع أسماء آبار القرية التي استخدمها أهالي القرية عبر تاريخهم الطويل، وقد عمل الطلاب على تصنيف هذه الآبار على أساس: اسم البئر، الموقع، مستعمل أو مهجور، صاحب البئر.

مجموعات أخرى عملت على رسم الامتداد التاريخي لعائلات القرية، من خلال البحث عن جذور هذه العائلات: أصل التسمية، من أين جاءت؟ كيف ساهمت في بناء هذا المكان. كما رسموا أشجاراً لبعض العائلات واستكملوا بعضها الآخر.

ومجموعات تخصصت في مجال التصوير، عملت فيما بينها على بناء قوائم بأسماء الأماكن الأثرية الموجودة في القرية، استعانوا بكبار السن في القرية، وتعاونوا مع المجموعات الطلابية التي تعمل في مجال الفلكلور وجغرافيا القرية والآبار والبناء. تعاونت هذه المجموعات مع بعضها البعض بهدف إنجاز العمل بشكل متكامل، وبعد بناء القوائم وتوفر الكاميرا التي جاءت بدعم من مركز القطان، انطلقت المجموعة تصور، البيوت القديمة، والآبار، وسراج الزيت، ومعاصر الخمر، والبد، والمسجد القديم، وأدوات الزراعة البدائية.

وهناك مجموعات عملت على تجميع الوثائق التاريخية من أهالي القرية.

تقول إحدى الطالبات، سألت جدي عن جواز السفر، صور الهويات القديمة، شهادات الميلاد، عقد الزواج، أوراق ملكية الأرض، وقالت جدتي لجدي أعطيها المطلوب.

لم يتوقف الموضوع عند هذا الحد، بل استخدم الطلاب المواد المنتجة في أنشطة تعليمية مختلفة تهدف إلى إثراء المناهج المدرسية، ومثلوا الكتاتيب، ورسموا مواسم الحصاد، وقطف الزيتون، واستخدموا الرسم البياني والتمثيل النسبي في تعريف عدد السكان والمساحة.

كانت هذه التجربة مذهلة لأسباب عدة، منها:

1. مدى اهتمام الطلبة بالفكرة، على الرغم من الصعوبات التي واجهتها بعض الطالبات أثناء عملية جمع المادة التي غالباً ما تعلقت بالراوي، إلا أنهم ثابروا واستطاعوا أن يتغلبوا عليها.
تقول إحدى الطالبات: كلما كنت أذهب إلى جدي كان يطردني من بيته، ويسب علي وعلى كل واحد يعمل في المشروع، وكان يقول: هالاستاذ اللي عندكم فاضي باله الله يوخذك ويوخذ معلمك، متحير في هالمعلم كل شيء بدو إياه، الواحد مش فاضي يحك راسه.
2. التجربة استطاعت أن تكسر حاجز الصمت والخوف عند الطلبة، وذلك خلال المقابلات أو عند القيام بأنشطة تطبيقية على المادة المنتجة.
تقول إحدى الطالبات: لقد أعاد المشروع ثقتي بنفسي، وعرفت أنني قادرة على عمل شيء في هذه الحياة، كما أن المشروع حببني في بلدي والمكان الذي نشأت فيه.
تضيف طالبة أخرى: في أول مرة ذهبت فيها مع أصدقائي لجمع مواد للمشروع، كنت أقول لأصدقائي: اسأل وأنا سوف أكتب، وكذلك الحال في المرة الثانية، ولكن بعد ذلك ذهبت أنا وسألت وقلت لصديقتي: أنت سوف تكتبين.
3. ساعد المشروع على تطوير قدرات الطلاب التعليمية ورفع مستواهم الأكاديمي، وبخاصة في مجال الكتابة والتعبير وأعطاهم القدرة على تنظيم الوقت وإدارته بشكل جيد، والعمل من خلال مجموعات طلابية تعاونت وتشاركت في بناء الفكرة، كما ساعدهم على تطوير علاقاتهم مع المعلمين والمجتمع المحلي.
تقول إحدى الطالبات: تعرفت من خلال المشروع على أشياء كثيرة عن أجدادنا، لا يعرف الناس الكمبيوتر ولا التلفزيونات، كانوا يهتمون بالأراضي كثيراً، يتعلمون في المسجد، ويطبخون على النار، ويسهرون على السراج، ويتنقلون من مكان إلى آخر عن طريق الحيوانات، ويزوجون الفتاة وهي في سن مبكر، كانت حياتهم صعبة كثيراً، لكنها أحلى من أيام اليوم.

محمد الخواجا – مدرسة المدية
منسق مشروع «مشاريع تطبيقية صغيرة في المدارس»

طفل يعزف على آلة القانون خلال حصة تدريبية في مدرسة غزة للموسيقى.